الأسباب المتيسرة لنا ـ ونبذل كما يبذل غيرنا الجهد المنظم في كشف أسرار الكون والحياة والنفس، وألا يكون النجاح فقط هو الهدف، ولكن النجاح الشريف. النجاح الراجح في الميزان الأخلاقي.

نعود بعد هذا إلى قول الله تعالى: ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ نعم هؤلاء وهؤلاء يمدهم الله من عطائه وفق القوانين التي تسير بها الحياة. وللنجاح مفاتيح من أدراها في أبواب العلم انفتحت أمامه الأبواب. ومن أدراها في أبواب الرزق رزقه الله. ومن ضرب في الأرض متاجرًا يبتغي من فضل الله، وسلك الطريق، وصل إلى ما لا يصل إليه القاعد.. فإن السماء لا تُمطر ذهبًا ولا فضة. والطير تغدو من أوكارها باحثة عن رزقها، وتروح على فراخها حاملة إليها طعامها بعد بذل الجهد.. هكذا الطير والنمل والنحل .. الكل يسعى .. هذا هو القانون الطبيعي .. أما ميزان العمل ومدى ما فيه من حلال أو حرام.. فهذا هو ميزان الأخلاق.. والدين يجمع الميزانين جميعًا: أن تأخذ بالأسباب، مع خلوص النية واللقاء بين طيب القول والعمل.

(٨)

التفضيل في الدنيا والآخرة

يقول الله تعالى: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ (الإسراء: ٢١).

والنظر في مفهومه العام معروف لنا جميعًا وهو توجه آلة الحس البصري ـ وهي العين ـ إلى المُبْصَر. ولكن شاع في كلام العرب استعماله في النظر المصحوب بالتدبّر وتكرير مشاهدة الأشياء للاعتبار. وهو لغويًا لا يقتصر على الرؤية العينية، ولكن قد يقصد به التأمل وحده.

فمما يدل على مجرد الرؤية دون تبصّر وتدبر قول الله تعالى في وصف المنافقين: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ (التوبة: ١٢٧).

ومما يدل على اللقاء بين الرؤية والتدبر قول الله تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴾ (عبس: ٢٤ـ٢٧).

ومما يدل على مجرد التدبّر قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (الحشر: ١٨).

والنظر في الآية الكريمة يجمع بين الرؤية والتأمل معًا. والرؤية في الآية تمتد لتشمل الماضي والحاضر. والقرآن يفسّر بعضه بعضًا. ولنقرأ قول الله تعالى:

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ ثم تمتد لتشمل الربط بين الدنيا والآخرة، وهذا تمام الآية ﴿ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (يوسف: ١٠٩) هذه الرؤية، وهذا التدبر.

وفي القرآن معنيان آخران للنظر:

أولهما الرحمة. وذلك قوله تعالى في سورة آل عمران واصفًا من يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنًا قليلاً ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (آل عمران: ٧٧).

والمعنى الثاني هو الانتظار. وذلك قوله تعالى في سورة يس ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً ﴾ وقوله في سورة ص: ﴿ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً ﴾ ومثلها ما جاء في سورة الأعراف في قصة آدم وإبليس: ﴿ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أي أجلّني.

فهذه أربعة أوجه في معنى النظر، يرتبط منها الاثنان الأوليان بما نحن بسبيله في شرح قوله تعالى: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ والنظر يقتضي المعرفة الممتدة على مستوى الفرد والمجتمع والإنسانية في شمولها، والممتدة في تاريخ الإنسانية. وهذه الإحاطة ليست في مقدور فرد أو هيئة محدودة، وإنما المقصود أن تتكون لدى المسلم نظرة شاملة يحس فيها أمرين:

الأول : أن التباين أساس تقوم عليه الحياة.

الثاني: وأن التعاون أساس تقوم عليه الحياة.

وأنت لا تستطيع أن تتصور ـ مجرد تصور ـ تطابقًا كاملاً بين مكوّنات البيئات الطبيعية. وإذا سلّمنا ـ جدلاً ـ بالتطابق، فما هو الحجم الأمثل الذي تتكون منه الوحدة السياسية. وهل هذا الحجم ثابت؟ وكيف يكون ثابتًا وقد تغيرت وسائل المواصلات وما كان بعيدًا أصبح قريبًا. وما كان مجهولاً أصبح معلومًا. وكيف تتوزع المهن بين الأفراد من الرعي إلى الزراعة بمستوياتها، إلى الصناعة بتطوراتها التي كانت أكثر اعتمادًا على المادة، وأصبحت أكثر اعتمادًا على الفكر.. بل إن الصناعة كلما تقدمت كلما زاد قَدْر الفكر الداخل فيها، وقلت المادة المستخدمة. ولك أن تقارن بين حجوم الأجهزة الإلكترونية ومن قبلها الأجهزة السلكية واللاسلكية.

إن الدولة كلما تقدّمت كان تصديرها للفكر والإبداع أكثر من تصديرها للمادة في ذاتها. وإن الدول المتخلفة هي التي تقتصر على تصدير موادها الأولية من رعوية وزراعية ومعدنية، والدول المتقدمة هي التي تتولى التصنيع ثم التسويق، ومنه تجني أكبر الأرباح.

والأمر لا يتوقف على مدى توفّر المادة الخام في مناطق إنتاجها. فإن أكثر المواد الأولية التي تحتاج إليها اليابان تستوردها من الخارج، ثم تضيف إليها هذا العنصر العزيز، بل لعله أعز العناصر، وهو الإبداع والابتكار والتفوق على الذات.. ويقودنا هذا إلى الإشارة إلى أغلى الموارد وهو العقل الإنساني، وأعز الأرصدة وهم الشباب، إذا أحسنّا تكوينهم وإعدادهم لهذا الغد المبدع.. لهذا السياق المستمر الذي لا ينقطع في كشف المجهول من أسرار المادة وتكويناتها، واستشراف المستقبل.

لقد أيقظ الإسلام في أتباعه هذه الرغبة في الإبداع، ودعاهم إلى السير في الأرض والنظر، وأن يتأملوا كيف فضل الله بعض الناس على بعض، ولنتأمل كلمة "كيف".

إن الكيف ليس مجرد رؤية نظرية. وإنما هو تأمل دقيق لمعرفة أنواع التفضيل، والأسباب المؤدية إلى كل منها. التفضيل الزراعي والرعوي والصناعي. التفضيل في إعداد الأجيال الجديدة. التفضيل في القدرة على الدفاع عن الأوطان

وتوفير القوة البشرية والمادية الرادعة التي يتمثل فيها قول الله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ (الأنفال:٦٠). التفضيل في القدرة على التخطيط والموازنة بين احتياجات الحاضر والمستقبل، وحشد الطاقات لكل ذلك. كل أولئك يسير وفق قواعد وأصول علينا أن ننظر فيها. والنظر كما سبق القول رؤية واعتبار.. ثم هو قدرة على ترجمة الاعتبار إلى واقع ملموس.

هذا التراث الإسلامي العريض من الإبداع في آفاق المعرفة التي استطاع به المسلمون أن يحفظوا ـ قدر استطاعتهم ـ التراث الذي سبقهم بروح إنسانية، ليس فيها استعلاء ولا خضوع، وأضافوا إليه من فكرهم بأمانة وشرف، ما غمطوا حق أحد، ولا نهبوا تراث أحد.. ولما تقلص ظلهم، وغامت شمسهم ورث الغرب بعض ما تركوا، فعرّف بعضه، وبدّل وحرّف، وادعى ما ليس له. ولا زال علينا عبء كبير في رد الحقوق إلى أصحابها وإنصاف علمائنا، ممن سطا عليهم من علماء الغرب، ثم علينا أن ننشر ما زال مطويًا، وعلينا مع هذا كله، أن تساهم في النهضة العلمية المعاصرة إيجابيًا، دون أن نقف عند حدود النقل والتقليد والإعجاب أو الرفض.

ومع كل هذه المعركة الحضارية، التي أصبح العلم فيها من أمضى الأسلحة، وأصبح ـ في بعض المبتكرات ـ أسرارًا، لا سبيل إلى الحصول عليها إلا ببذل الجهد والدأب والتنظيم العلمي، علينا أن نعمل وعيوننا على الآخرة. والآخرة عون على الدنيا. والإيمان في ذاته طاقة جبارة دافعة إلى العمل والإبداع ودرجات الآخرة التي وصفها الله بقوله: ﴿ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ تريك أن الدنيا مزرعة الآخرة.

تأمل قول الله تعالى: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (الأنعام: ١٦٠).

وتأمل قوله تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة: ٢٦١).

وقوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (البقرة: ٢٦٥).

في هذه الآيات نرى درجات من تضاعف الأجر: ضعفين إلى عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف.. فإذا كان الثواب بهذه المضاعفة كانت الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً.

ولكن جواز مرور هذه الأعمال هو الإخلاص لله تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ (البينة: ٥).

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾ (الزمر: ٢، ٣).

(٩)

لا تجعل مع الله إلهًا آخر

يقول الله تعالى: ﴿ لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا ﴾

وقد بيّن لنا ـ سبحانه ـ صور التفاضل في الدنيا والآخرة، ومنهج مَنْ أراد العاجلة؛ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن. وأن طلب الآخرة ليس بترك العاجلة، ولكن بأسلوب العمل فيها والميزان الأخلاقي الذي يمارس به أنشطته. وإن محور هذا جميعًا هو النية الصالحة، والتي بها يمكن أن يصبح العمل ـ أي عمل ـ ما دام في نطاق ما أحلَّ الله ـ من أعمال الآخرة: يستوي في هذا طلب العلم والرزق وعمارة الحياة والعدل بين الناس في الغضب والرضا، والعكوف على البحث في أعماق النفس والكون.

صورة العمل الظاهرة قد تكون واحدة، ولكن إحداهما عند الله مقبولة والأخرى مرفوضة، برغم المظهر الواحد، ذلك لأن المعوّل عليه هو النية المصاحبة للعمل. بل قد يكون أثرهما في الحياة الدنيا واحدًا، ولكن النتيجة عند الله مختلفة.

ولقد ضرب الرسول عليه الصلاة والسلام لنا في هذا ثلاث صور يجمعها حديث واحد نقرؤه معًا: عن شُفَيٍّ الأَصْبَحِيِّ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: أَوَّلُ مَنْ يُدعى بِهِ يوم القيامة رَجُلٌ جَمَعَ الْقُرْآنَ، وَرَجُلٌ قُتل فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ كَثِيرُ الْمَالِ. فَيَقُولُ اللَّهُ تعالى لِلْقَارِئِ: أَلَمْ أُعَلِّمْكَ مَا أَنْزَلْتُ عَلَى رَسُولِي؟ فيقول: بَلَى يَا رَبِّ. قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيمَا عُلِّمْتَ؟ فيقول: كُنْتُ أَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ. فَيَقُولُ اللَّهُ تعالى لَهُ: كَذَبْتَ. وَتَقُولُ لَهُ الْمَلائِكَةُ: كَذَبْتَ. وَيَقُولُ لَهُ اللَّهُ تعالى: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ فُلانٌ قَارِئٌ، وَقَدْ قِيلَ ذَلكَ. وَيُؤْتَى بِصَاحِبِ الْمَالِ فَيَقُولُ اللَّهُ تعالى: أَلَمْ أُوَسِّعْ عَلَيْكَ حَتَّى لَمْ أَدَعْكَ تَحْتَاجُ إِلَى أَحَدٍ؟ فيقول: بَلَى يَا رَبِّ. فيقول: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا آتَيْتُكَ؟ فيقول: كُنْتُ أَصِلُ الرَّحِمَ وَأَتَصَدَّقُ. فَيَقُولُ اللَّهُ تعالى: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ الْمَلائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ له اللَّهُ تَعَالَى: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ فُلانٌ جَوَادٌ، وَقَدْ قِيلَ ذَلكَ. ثم يُؤْتَى بِالَّذِي قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ تعالى: فِيمَا ذَا قُتِلْتَ. فَيَقُولُ: أُمِرْتُ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِكَ فَقَاتَلْتُ حَتَّى قُتِلْتُ. فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ الْمَلائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ له اللَّهُ تعالى: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ فُلانٌ جَرِيءٌ، وَقَدْ قِيلَ ذَلكَ. ثُمَّ ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى رُكْبَةِ أَبِي هُرَيْرَةَ فقال: يا أبا هريرة أُولَئِكَ الثَّلاثَةُ أَوَّلُ خَلْقِ اللَّهِ تُسَعَّرُ بِهِمْ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"

قال شفي: فأخبرت معاوية بهذا الحديث عن أبي هريرة فقال: قد فُعل بهؤلاء هذا، فكيف بمن بقي من الناس؟ ثم بكى معاوية بكاءً شديدًا حتى ظُنّ أنه هالك. ثم أفاق ومسح عن وجهه وقال: صدق الله ورسوله، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ (هود: ١٦) أخرجه مسلم والترمذي واللفظ له والنسائي (تيسير الوصول إلى جامع الأصول في كتاب الرياء ٢: ١٤٢ ـ ١٤٣).

وأخرج الترمذي عن أبي هريرة وابن عمر رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: "يكون في آخر الزمان رجال يختِلون الدنيا بالدين، يلبَسُون للناس جلودَ الضأن من اللين، ألسنتُهم أحلى من العَسَل، وقلوبهم قلوب الذئاب، يقول الله تعالى: أبي تغترُّون أم عليّ تجترِئون؟ فبي حلفتُ لأبعثن على أولئك منهم فتنةً تَذَرُ الحليمَ فيهم حيران" (نفس المرجع ص٢: ١٤٣).

ونختم هذه الأقباس من الأحاديث الشريفة بما أخرجه الترمذي عن كعب بن مالكٍ رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: "من طَلَب العلم ليجارِيَ به العلماء

ويُماريَ به السفهاءَ، ويصرفَ به وجوهَ الناس إليه أدخله اللّه النار" (نفس المرجع ٢: ١٤٣).

وبحديث قدسي من جوامع كلم المصطفى عليه الصلاة والسلام أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي اللّه عنه: قال رسول اللّه ﷺ: يقول اللّه تعالى: "أنا أغنى الشركاء عن الشرك. من عَمِل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشِرْكه".

وقد أورد ابن الأثير أحاديث الشرك في كتاب الرياء من كتابه الكبير جامع الأصول. وتابعه في هذا الشيباني في تيسير الوصول إلى جامع الأصول.

وفي هذا يبدو الترابط بين جوانب النية وهي من أعمال القلوب، والأعمال الظاهرة من طلب العلم والجهاد في سبيل اللّه وجمع المال وإنفاقه، وتبدو قيمة الإخلاص ومكانته في الإسلام، وكيف جاء قول اللّه تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً ﴾ والمذموم كما سبق القول هو المذكور بالسوء والعيب والمخذول هو الذي أسلمه ناصره.

فأما ذمه فمن ذوي العقول في الدنيا، ومن اللّه والملائكة يوم القيامة.. بل من جوارحه التي تشهد عليه بما يعمل، وكتابه المنشور أمامه: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ (الإسراء: ١٤).

مذموم ذلك الذي اتخذ وثنًا ينحته ثم يعبده.

مذموم ذلك الذي عبد المنصب والجاه وحب المحمدة عند الناس، وهو والناس جميعًا معروضون على رب الأشهاد في يوم تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت،

﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ (الحج: ٢).

مخذول: لأنه اتخذ من دون اللّه وليًا، لا يغني عنه من اللّه شيئًا. وصدق اللّه العظيم ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ (محمد: ١١).

ولو تأملنا ما حولنا لرأينا من حاولوا الاعتزاز بغير اللّه، ومن اطمأنوا إلى أموالهم وسلطانهم، وإلى حرسهم الشديد، وما جمعوا من قوة البر والبحر والجو.. ولكن تركوا هذا الحبل النوراني الذي يربطهم بخالقهم. وبغوا على الناس بغير

الحق، وقالوا: من أشد منا قوة.. وجاءهم قدر الله من حيث لا يحتسبون، فإذا الحديد والحرس والقوة والجند غثاء كغثاءِ السيل، وزبدٌ تدفعه أمواج الحياة، في تدفقها الهادر، وكم طوت الأيام من جبابرة، وصدق الله العظيم ﴿ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴾ (الدخان: ٢٥ ـ ٢٩).

أما الصالحون: فقد جعل الله لهم لسان صدق في الآخرين وجعلهم ـ بفضله وكرمه ـ من ورثة جنة النعيم.

ونعود فنقول: إن مدار العمل هو الإخلاص أولاً. وهو الذي يدعو إلى ما وراءه من الفضائل: هو الذي يدعو إلى حسن اختيار الأعمال والأفراد وتوزيع المسئوليات حسب القدرات الحقيقية، لا على أساس الرغبات والأهواء الذاتية. وهو الذي يدعو إلى العدالة في تقويم الأعمال والأفراد ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ﴾ (الرحمن: ٧ـ ٩).

إنه العنصر المصاحب للإنسان في دنياه وأخراه، لذلك كان التوحيد والإخلاص فيه هو مدخل وصايا سورة الإسراء. وإليها رحلتنا فيما نستقبل من أحاديث.

(١٠)

مع التوحيد

يقول الله تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً ﴾

الخطاب في هذه الآية للنبي ﷺ وهو تبْعٌ لقول الله تعالى في الآية السابقة ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ﴾ والمقصود أن يسْمعَ غيرُه الخطاب. وألا يجعلَ مع الله إلهًا آخر.

وبينت الآية ثمرةَ الشرك: وهو أن يقعد المُشْرك مذمومًا مخذولاً.

وفي القعود معنى المكث والدوام.. الذي يستمر معه الذم والخذلان ما بقي الشرك.

وهذه الآية تربط بين ما قبلها، وما يأتي بعدها من الوصايا التي تبدأ بقول الله تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾

ولكل من الآيتين هدف:

لقد جاء لفظ الجلالة في الآية السابقة. ويقابله هنا "ربك".

وجاء الأمرُ هنا بالعبادةِ موجبًا في قوله و "قضى" بينما جاء في الآية السابقة نهيًا ﴿ لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾

وجاءت عبادة الله هنا مع حشْدٍ من المكارم أولُها طاعةُ الوالدين، بينما جاء التوحيدُ في الآية السابقة في صورة النهي عن الشركِ والإنذارِ بالمذمةِ والخِذْلان.

وكأن الآيةَ السابقة جاءت نهايةَ شوْطٍ من التفرقةِ بين منهجين: الأولُ طلبُ العاجلة، والثاني طلبُ الآخرة مع الإحسانِ في السعي لها، وتوضيح كل من المسئولية الفردية والجماعية، وأن هذه سنةُ الله تعالى في القرون من بعد نوح.. والتاريخ هنا تأكيد لهذه السُنّة الإلهية.

هذه ملامح الشوط السابق من السورة الذي ننتقل بعده إلى وصاياها الجامعة.. وإنّ ما تضمنه آخرُ النهي السابق، تضمّنه أولُ الأمر الآتي: النهيُ عن الشرك والدعوةُ إلى عبادة الله وحده. فالطريقُ في مبدئه وخاتِمته هو معرفةُ الله وتوحيدهُ وعبادتُه.

وقد رأينا في مطلع سورة الإسراء، كيف مدح الله رسوله بالعبودية، في قوله تعالى: ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾

وفرق كبير بين قوله تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ بهذا الحصر الذي يقصر العبادة على الله، وبين أن تقول: وقضى ربك أن تعبدوه. فالذي يدعو الله وغيره يستطيع أن يقول أنا أعبد الله، وأدعو غيره، والله لم ينهني عن ذلك. ولهذا جاء السياق بهذا الحصر الذي لا يَدَعُ أي مجال للشرك في العبادة.

ملحظ آخر نراه في الآية:

وقضى ربك: هنا بالربوبية والضمير المتصل الدال على الرعاية، بعد أن جاء لفظ الجلالة في الآية السابقة ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ . فعبادةُ الله هديةٌ من الله ورحمةٌ بك.. والخطاب موجه إلى الرسول، وقضى ربك.. ثم الالتفات إلى الناس جميعًا: ألا تعبدوا.. أنت يا محمد وأصحابك والمؤمنون والناس جميعًا إلى أن تقوم الساعة. هذا أمر الله. والإله المعبود هو ربك يا محمد بصفاته، وأسمائه الحسنى، التي جاءت في القرآن الكريم وبيَّنتها السنة النبوية المطهرة. فالضمير في إياه عائد إلى (ربك).

والعبادة هي القصد الأعلى لله في كل أمر. هي التوجه إلى الله، والتزام أوامره واجتناب نواهيه، وعمارة الحياة بالعمل الصالح، وبهذه النيةِ تصبحُ الحياةُ كلهُا عبادةً متصلة، ويصبح الكونُ مسجدًا كبيرًا للإنسان ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة: ١١٥).

وأود أن نقف قليلاً مع الإمام ابن تيمية قدّس الله روحه وكانت وفاته سنة ثمان وعشرين وسبعمائة للهجرة (٦٦١ ـ ٧٢٨ هـ) في رسالته عن توحيد الإلوهية، وقد جاءت في الجزء الأول من مجموع فتاويه. هذه الفتاوى التي تكوّن مكتبة إسلامية متكاملة تقع في سبعة وثلاثين مجلدًا.

وسنختار من الرسالة بعض نصوصها توضيحًا لمعنى العبادة والتوجه إلى الله تعالى.. يقول: إن العبدَ بل كلَّ حي بل وكلَّ مخلوقٍ سوى الله هو فقيرٌ محتاجٌ إلى جلْبِ ما ينفعه، ودفعِ ما يضره، والمنفعةُ للحيِّ هي من جنس النعيمِ واللذةِ، والمضرُّة هي من جنس الألمِ والعذابِ، فلابد له من أمرين:

أحدهما: هو المطلوب المقصودُ المحبوبُ الذي ينتفعُ ويلتذُ به.

والثاني: هو المعينُ الموصّلُ المُحصّل لذلك المقصودِ، والمانعُ من دفعِ المكروه

وهذان هما الشيئان المنفصلان: الفاعلُ والغايةُ. فهنا أربعةُ أشياء:

أحدهما: أمرٌ هو محبوب مطلوب الوجود.

الثاني: أمرٌ مكروه مبْغَضٌ مطلوب العدم.

الثالث: الوسيلةُ إلى حصولِ المطلوبِ المحبوب.

الرابع: الوسيلة إلى دفعِ المكروه.

فهذه الأربعةُ ضروريةٌ للعبدِ بل ولكلِ حي، لا يقوم وجوده ولا صلاحه إلا بها. وإذ تبين ذلك، فبيان ما ذكرتُه من وجوه:

إن اللّه سبحانه وتعالى هو الذي يجب أن يكون هو المقصودَ المدْعُوَ المطلوبَ، وهو المعينُ على المطلوب، وما سواه هو المكروهُ، وهو سبحانه المعينُ على دفع المكروه. فهو سبحانه الجامع للأمورِ الأربعةِ دون ما سواه. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ فإن العبودية تتضمن المقصودَ المطلوبَ، لكن على أكملِ الوجوه. والمستعانُ هو الذي يُستعانُ به على المطلوب. فالأول من معْنى الإلوهية، والثاني من معْنى الرُبوبية.

إن الإله: هو الذي يُؤْلَه فيُعْبد محبة وإنابة وإجلالاً وإكرامًا.

والربُ: هو الذي يربي عبده، فيعطَيه خلْقَه ثم يهْديه إلى جميع أحواله من العبادة وغيرها، وكذلك قوله تعالى: ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ (هود:١٢٣). وقوله تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴾ (الفرقان: ٥٨).

الوجه الثاني: أن اللّه خلق الخلق لعبادته الجامعة لمعرفتهِ والإنابة إليه ومحبته والإخلاص له. فبذكره تطمئن قلوبهم، وبرؤيته في الآخرة تقر عيونهم. ولا شيءٌ يعطيهم في الآخرة أحبَ إليهم من النظر إليه، ولا شيءٌ يعطيهم في الدنيا أعظم من الإيمان به.

ولا صلاح لعباده دون الإيمانِ باللّه وعبادتِه، وتحقيق المقصود من الإلوهيةِ والربوبيةِ معًا، وصدق اللّه العظيم ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ (طه:١٢٤ ـ ١٢٦).

ولهذا فإن اللّه لا يغفر أن يُشْرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء. ولهذا كانت "لا إله إلا اللّه" أحسنَ الحسنات، وكان التوحيدُ بقَوْله "لا إله إلا اللّه" رأسَ الأمر.

جاء في الحديث الصحيح الذي رواه معاذ عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال: "أتدري ما حقُ اللّه على عبادِه؟ قال قلت: اللّه ورسوله أعلم. قال: حقُ اللّهِ

على عبادِه أن يعبدُوه ولا يشركوا به شيئًا. أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ قال قلت: الله ورسوله أعلم. قال: حَقهم أن لا يعذبهم".

وهو ـ سبحانه ـ يحب ذلك، ويرضى به، ويرضى عن أهله، ويفرح بتوبة من عاد إليه؛ كما أن في ذلك لذة العبد وسعادته ونعيمه.

فليس في الكائنات ما يسكنُ العبدُ إليه ويطمئن به، ويتنعّم بالتوجه إليه، إلا الله سبحانه وتعالى، ومن عبدَ غيرَ الله وإن أحبَّه وحَصَل له به مودَة في الحياة الدنيا ونوعٍ من اللذة فهو مفسدةٌ لصاحبه أعظَم من التذاذِ أكل الطعامِ المسموم. يقول الله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (الأنبياء: ٢٢).

ولو حصل للعبد لذاتٌ وسرورٌ بغير الله فلا يدومُ ذلك. أما الله فلا بُدَّ لنا منه في كل حال ووقت ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ (البقرة: ٢٥٥)، ومن أحب غير الله لله فهو في سبيل الله، وخير الناس أنفعهم للناس. والله طيبٌ لا يقبل إلا طيبًا.

(١١)

من عبادة الله إلى الإحسان بالوالدين

يقول الله تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ﴾

وسنقف أولاً عند كلمة "قضى" فهي مشتركة في العبادة والإحسان بالوالدين.

قضى هنا بمعنى أمر. هو أمر الله. وللعبد اختياره بين النجدين: الطاعة أو المعصية ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ (الشمس: ٧ ـ ١٠).

والأمر هنا ليس كونيًا كقوله تعالى عن خلق السماوات ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ ﴾ (فصلت: ١٢).. وإنما كقوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ

وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ (النحل: ٩٠).

ولقد عرضنا في الحديث السابق لجوانب من معنى العبادة، وقرأنا معًا نصوصًا مختارة من رسالة للإمام ابن تيمية عنوانها قاعدة في توحيد الإلوهية، جاءت في الجزء الأول من مجموع فتاويه ورسائله. وفي الرسالة تفصيل كريم، عن أعمال العباد في الدنيا ووزنها بميزان التوحيد: توحيد الإلوهية والربوبية. فالله وحده هو الخالق وهو المستعان. ومدار الإسلام على قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾

ويقول في رسالته: "العبد كلما كان أعظم افتقارًا إلى الله وخضوعًا له: كان أقرب إليه وأعزّ له، وأعظم لقدره. فأسعد الخلق: أعظمهم عبودية لله. وأما المخلوق فكما قيل: احتج إلى من شئت تكن أسيره، واستغن عمن شئت تكن نظيره، وأحسِنْ إلى من شئتَ تكُن أميرَه.. فأعظم ما يكون العبد قدرًا وحرمة عند الخَلْق، إذا لم يحتج إليهم بوجه من الوجوه، فإن أحسنت إليهم مع الاستغناء عنهم كنت أعظم ما يكون عندهم، ومتى احتجت إليهم.. نقص قدرك عندهم بقدر حاجتك إليهم".

ثم يقول ابن تيمية: "إن الرب سبحانه: أكرم ما تكون عليه أحوجَ ما تكون إليه، وأفقر ما تكون إليه. والخلق: أهون ما تكون عليهم أحوجَ ما تكون إليهم، لأنهم كلهم محتاجون في أنفسهم، فهم لا يعلمون حوائجك، ولا يهتدون إلى مصلحتك، بل هم جهلة بمصالح أنفسهم، فكيف يهتدون إلى مصلحة غيرهم؟ إن الله تعالى يعلم مصالحك ويقدر عليها، ويريدها رحمة منه وفضلاً. وذلك صفة من جهة نفسه. لا شيء آخر جعله مريدًا راحمًا، بل رحمته من لوازم نفسه، فإنه كتب على نفسه الرحمة، ورحمته وسعت كل شيء".

وتستطيع أن تتابع السير مع شيخ الإسلام في هذا الفيض الروحي الواعي النابع من نور القرآن ومشكاة النبوة، يحبّب إليك الإيمان، ويقرّبك من الرحمن، ويدعوك إلى عبادة الله حبًا بلغ مداه عند المصطفى عليه الصلاة والسلام في قوله: "وجُعلت قرة عيني في الصلاة".

ونتوجه إلى الله بدعاء المصطفى عليه الصلاة والسلام عشية عَرَفة. وقد رواه الطبراني عن ابن عباس قال: "مما دعا به رسول الله ﷺ عشية عرفة: اللهم أنك

تسمع كلامي وترى مكاني، وتعلم سري وعلانيتي، ولا يخفى عليك شيء من أمري. أنا البائس الفقير، المستغيث المستجير، الوجل المشفق، المقر بذنبه. أسألك مسألة المسكين، وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير، من خضعت لك رقبته، وذَل لك جسده، ورغم لك أنفه. اللهم لا تجعلني بدعائك رب شقيًا، وكن بي رءوفًا رحيمًا، يا خير المسئولين، ويا خير المعطين" وقد أورد ابن تيمية هذا الدعاء في مجموع الفتاوى. (١: ٤٣).

ومن العبودية لله ننتقل إلى قوله تعالى: (وبالوالدين إحسانًا) وقبل أن أتكلم عن حق الأبوين يأتي إلى ذهني خاطر عندما أتأمل قول الله تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾

والخطاب موجه إلى المصطفى عليه الصلاة والسلام في قوله (ربك) وهو عام للناس جميعًا، من حيث هو أمر وقضاء من الله. أما العبادة فهي الحياة عند المصطفى عليه الصلاة والسلام. كانت حياته عبادة. وعبادته حياة وإحياء لقلوبنا جميعًا.. ومنه أخذنا مناسكنا.. ولكن (وبالوالدين إحسانًا) أقرؤها وأذكر أن المصطفى عليه الصلاة والسلام عاش يتيمًا، كما وصفه في سورة الضحى:

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴾ والله تعالى يخاطب اليتيم ـ وهو رحمة الله للعالمين ـ ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ مات أبوه عبد الله وهو لا زال جنينًا، وماتت أمه وله من العمر خمس أو ست سنين.

هذا هو اليتيم الذي أشاع الرحمة بين الناس، ودعا إليها ومارسها، وكانت حياته أكرم تطبيق لها. رحمة امتدت حتى إلى الحيوان الأعجم فضلاً عن البشر، من كان من ذوي أرحامه أو كان أخاه في الإنسانية.

وكم كان الرسول ﷺ بارًا بكل من كان له كالأب أو الأم: جده عبد المطلب، عمه أبو طالب، حليمة السعدية مرضعته، أم أيمن حاضنته، الشيماء أخته من الرضاع.. كذلك من كانوا له بمنزلة الأبناء: سيدنا علي بن أبي طالب وقد تربى في حجر الرسول، زيد بن حارثة، وولده أسامة.

وبين الأمر بالعبادة لله وبالإحسان إلى الوالدين صلة: فالله تعالى هو الخالق، فاستحق العبادة لأنه أوجد الناس. والأبوان هما مظهر إيجاد الناس، وهما وسيلة الله في ذلك. ولهذا جاء الإحسان إليهما: العبادة لله الخالق، الإحسان إلى

الوالدين، وهما وسيلة الله في مجيء الأبناء ومسار الحياة الإنسانية. وإن الله جَبَل الوالدين على الإحسان إلى الأبناء والقيام بأمرهم. وأنت ترى هذا حتى في الحيوان الأعجم. هذه فطرة الله التي فطر الناس عليها. وكلما كان الكائن أكثر رقيًا، كانت فترة طفولته أطول، واعتماده على أبويه أكبر، وتبلغ هذه الحضانة الطبيعية والاقتصادية والاجتماعية أطول مداها بين الكائنات، مما يقتضي من الأبوين مزيدًا من الجهد والعناية والرعاية.. ولا يشعر بها الأبناء إلا مع زيادة إدراكهم.. فإذا شبوا فقد ينصرفون إلى شئونهم عن رعاية آبائهم.. ومن هنا جاءت وصية الأبناء بالآباء، ولم ترد وصية الآباء بالأبناء إلا في نماذج من التوجيه، كما ترى في قصة لقمان لابنه وهو يعظه.

تقول في اللغة أحسن به وأحسن إليه.

يقول الله تعالى في قصة قارون: ﴿ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ (القصص: ٧٧).

ويقول تعالى في قصة يوسف: ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ﴾ (يوسف:١٠٠).

وبالوالدين هنا تدل على أن الإحسان لهما معًا: الأم والأب. وإن كان للأم مكان التفضيل في الرعاية. يقول الله تعالى في وصايا لقمان:

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (لقمان: ١٤). ولقد نص الحديث الشريف على أنها الأوْلى، فهي الأضعف والأكثر تحملاً، وبخاصة في فترات التربية الأولى.

وكلمة (إحسانًا) جاءت مطلقة لتدل على عموم الإحسان: إحسان القول والعمل والنظرة والرعاية والمودّة.. فكل ما يريانه حسنًا، عليك أن تقوم به نحوهما.

وتقديم الوالدين دلالة على مكانتهما.. هذه المكانة التي يحيط بها كل الإحسان من كل أقطارها.

(١٢)

إما يبلغنّ عندك الكِبَر

يقول الله تعالى عن الوالدين: ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ (الإسراء: ٢٤).

هذا الجزء من الآية لاحقٌ لقوله تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ فبعد أن أطْلقَ الإحسانَ، فَلَمْ يقيّده بظاهرةٍ أو مكانٍ أو زمانٍ أو مَدى، حددت الآية مرحلة كبر السن لأحد الأبوين أو كليهما. وهذا التخصيص هو الأوْلى بالرعاية. ولهذا جاء قول الله ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ ﴾ فأنت كنت عندهما يرعيانك في الصغر.. والآن أصبحا "عندك". هم أمانة ورعاية، وأنت المسئول عن هذه الأمانة والمكلف بهذه الرعاية. ومع تفضيل الأم في الرعاية لأنها هي الأضعف والأقرب إلى الإرهاق من الأب، إلا أن الآية في هذه المرحلة لم تشر إلى أكثر من رعاية أحدهما أو الاثنين معًا.

والآية تنهى عن أمرين: لا تقل لهما أف ولا تنهرهما. لا تقل لهما: لإحدهما أو لهما معًا أو لأي منهما على انفراد. وكلمة أف صوت ينبئ عن التضجر. وهي اسم فعل معناه أتضجّر. و" لا تقل لهما" لا تقتصر على مواجهتهما بذلك. فالأب أو الأم عند الكبر يبلغان حالة من الضعف، يعود بها الكبير صغيرًا لا يقدر أحيانًا على خدمة نفسه، ولا التحكم في أعضائه وأجهزته. وقد تكثر طلباته، ومناداته لولده، وقد يطلب منه العون فيما كانت تعين به الأم طفلها الصغير، وهو عاجز عن تنظيف نفسه ورعاية ملابسه وطعامه.. فقد لا يكون لفظ التضجر موجهًا إليهما مباشرة، ولكن إلى بعض تصرفاتهما.. وهذا منهيٌ عنه أيضًا.

وأنت لو قارنت بين كلمة أف التي تدل على التضجر، وكلمة آه التي قد تدل على الألم، وجدت أن الثانية تستطيع "لغويًا" أن ترفع بها صوتك فحروفها من الحلْق تستطيع أن تمدها.. بينما كلمة أف إذا بدأت مع الهمزة عند الحق كتمتها الفاء وهي من حروف الشفاه. الكلمة بطبيعتها مكتومة.. ومع هذا أنت منهي عنها، فانظر إلى حكمة الله في اختيار اللفظ الدال على التضجر.. فستجد لفظًا بطبيعته يتولد عند الحلق وتكتمه الشفاه.

وإذا كان هذا هو أقل ما تستطيع أن تعبّر به عن التضجر.. فلماذا جاء النهي الثاني وهو قول الله تعالى: (ولا تنهرهما) لاحقًا للنهي عن أدنى القول وهو كلمة (أف).

لابد أن نهر هنا لها معنى آخر غير كلمة أف. وكل كلمة في كتاب الله لها حكمتها.

نعود إلى مادة "نَهَرَ" في لغتنا العربية. وأعود معك إلى "مفردات الراغب الأصفهاني" وهو يشرح الكلمة ومعانيها في القرآن. ومن تعدد المعاني ننتقل إلى الجذر الذي تفرعت منه. يقول النهر مجرى الماء الغائض وجمعه أنهار قال تعالى: ﴿ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴾ والنَهْر السَعَة تشبيهًا بنهر الماء. ومنه أنْهَرْتُ الدم أي أسَلْتُه، وأنهر الماءُ جَرى. والنهارُ الوقت الذي ينتشر فيه الضوء. والمنهرة الفضاءُ بين البيوت. والنهر والانتهارُ الزجر بمغالظة يقال نهْر وانتهرْ قال تعالى: ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾، ﴿ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ انتهى المختار من قول الأصفهاني رحمه الله.

وهنا يطرأ سؤال: ما الجامع بين هذه الأمور؟ وكيف يأتي النهر وهو الزجر بمغالظة، كما يذهب إلى ذلك الراغب الأصفهاني بعد كلمة "أف" وهي الأدنى؟ وهل يكون الترتيب بأن يأتي الذنب الأكبر بعد الأصغر؟

وقفت عند هذه التساؤلات وعدت إلى مقاييس اللغة لابن زكريا، وهو قاموس في الاشتقاق. ولعله من أروع ما أنتج الفكر العربي في فهم اللغة..

ذكر أن النهر هو الشق.. وأخذ يرد الاستعمالات إلى أصولها.. ولنحاول معًا أن نرى مدى ارتباط الاستعمالات بالجذر. فالنهر ـ وهو مجرى الماء ـ هو شق في الأرض. وأنهر الدم أي أساله، ولا يأتي هذا إلا من جرح أو طعنة، وهما شق في الجسم. والنهار وكأنه نور شق ظلمة الليل. والمنهرة وهي الفضاء بين البيوت، كأنها شق بينهما أو صدع أو فراغ.

يبقى هذا المفهوم القرآني المعجز الوارد في قول الله تعالى: ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾ وفي قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ ولنبدأ بالأول.. وفي شرحه يبدو شرح الثاني.

كلمة "أف" هي ما يصدر منك.. بل أدنى ما يصدر منك. ولكن "نهر" بمعنى صدع أو شق أمر مرتبط بتقدير الأب أو الأم.. فكل ما يراه، أحدهما شقًا في نفسه أو "كسرًا لخاطره" ـ كما نقول في اصطلاحنا الدارج ـ أنت منْهيٌ عنه، ولو كان كسر الخاطر هذا بالصمت أو بالإعراض أو بالنظرة المستهينة أو اللا مبالية. فكل هذه أمور خارج نطاق كلمة "أف" وهي مرتبطة أولاً وأخيرًا "بتقدير" الأب أو الأم. وبهذا يعتدل ميزان التعامل بين جيلين: منك أنت لا تقل لهما أف، كل ما يريانه كسرًا لخاطرهما أو إعراضًا أو تبرمًا يدخل في نطاق "النهر" ولكل من الجيلين مكانته في هذه الآية.

والله تبارك وتعالى يوجهك بعد هذين النهيَيْن إلى أمرين إيجابيين، يهوّنان عليك هذا التحمل ـ إذا كنت تراه تحملاً ـ ويجمّلان لك الجميل إذا كنت تراه مسئولية محببة.

يقول تعالى: ﴿ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ (الإسراء: ٢٤).

الآن جاء الربط بين أول الآية وآخرها: ﴿ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ ﴾ تقابلها ﴿ رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾، ﴿ وَقُل لَّهُمَا قَوۡلاً كَرِيمًا ﴾ مستغرقة في هذه الرحمة السابغة التي أفاضاها عليك في الصغر، وأنت لا تدري من أمر نفسك شيئًا، وأنت الآن ترد الجميل. وهما السابقان بالفضل والرعاية.

ولو تأملت قول الله ﴿ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ ﴾ أي بسبب الرحمة، لا بسبب الضعف أو الحاجة، أو حتى حسن المظهر والسمعة بين الأهل والجيرة.. لأحسست أن خفض جناح الذل سببه الرحمةُ لا غير.

ونقف معًا عند جناح الذل. فالذل هنا ليس مهانة. يقول الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولاً ﴾ أي ميسّرة أمامكم تعيشون عليها وتمشون في مناكبها وتستثمرون خيراتها وتأكلون من رزق الله الذي آتاكم.. معنى آخر.. إن الطائر إذا أراد التحليق نشر جناحيه، وإذا أراد الهبوط خفضهما.. وأنت مع والديك لا تحلّق في الأجواء، وإنما تضع جناحيك رحمة بهما وركونًا إلى ضعفهما.. معنى آخر: إن الطائر يخفض جناحيه لفراخه يضمهن إليه.. وكأن الولد يبسط جناح رحمته على أبويه.

ثم تأمل قول الله تعالى: ﴿ وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا ﴾ لم تقل الآية قولاً عدلاً، والكرم مرتبة فوق العدل، وفوق الصدق، وفوق العلم.. القول الكريم هو الذي يُشْعر الأب أو الأم بكرامتهما. هب أن الوالدة تصف للعلاج وصفة تقليدية توارثتها الأجيال، فلا تأت أنت تحاول تسفيه هذه الخبرات، وتتعالى بما عندك من العلم، وتدين جيلاً كاملاً بما تعلمته، وهو لا يعدو أن يكون اجتهادات علمية سيأتي بعدها ما يمحوها أو يعدلّها. مثل هذا في آرائهم عن الحياة العامة.. فالقول الكريم هو الذي يشعرهما بكرامتهما عليك وعندك. وبهذا يضم التوجيه: حسن القول والعمل واشتغال القلب واللسان بالدعاء لهما.. مع حيثيات ذلك ﴿ رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾.

من التراث مع الوالدين:

نواصل الحديث عن رعاية الوالدين. ومرجعنا في هذا الحديث تفسير روح المعاني للإمام الألوسي المتوفى سنة ١٢٧٠هـ سبعين ومائتين وألف للهجرة. وذلك عند شرحه لآيات رعاية الوالدين في سورة الإسراء (١٥ : ٥٨ ـ٥٩).

يقول روى مسلم وغيره: "لا يجزي ولدٌ والده إلا أن يجده مملوكًا فيشتريه فيعتقه".

وروى البيهقي في الدلائل والطبراني في الأوسط والصغير بسند فيه من لا يُعرف عن جابر قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إن أبي أخذ مالي، فقال النبي ﷺ: "اذهب فأتني بأبيك" فنزل جبريل عليه السلام على النبي ﷺ فقال: إن الله تعالى يقرئك السلام ويقول: "إذا جاءك الشيخ فسله عن شيء قاله في نفسه ما سمعته أذناه" فلما جاء الشيخ قال له النبيﷺ: "ما بال ابنك يشكوك. تريد أن تأخذ ماله"؟ قال: سله يا رسول الله هل أنفقته إلا على عماته وخالاته أو على نفسي؟ فقال النبي ﷺ: "إيه دعنا من هذا. أخبرني عن شيءٍ قلتَه في نفسك ما سمِعته أذناك" فقال الشيخ: والله يا رسول الله ما يزال الله يزيدنا بك يقينًا. لقد قلت في نفسي شيئًا ما سمعت أذناي. فقال: قل وأنا أسمع قال: قلت:

غـدوتك مولـودًا ومنتـك يافعًـا ... تعـل بمـا أجـني عليـك وتنهـل
إذا ليلـة ضـافتك بالـسقم لم أبـت ... لـسقمك إلا سـاهرًا أتململ
كـأني أنـا المطـروق دونـك بالـذي ... طرقـت بـه دونـي، فعـيني تهمـل
تخـاف الـردى نفـسي عليـك وإنهـا ... لـتعلم أن المـوت وقـت مؤجـل

فلمـا بلغـت الـسن والغايـة الـتي ... إليهـا مـدى ممـا كنـت فيهـا أؤمـل
جعلـت جزائـي غلظـة وفظاظـة ... كأنـك أنـت المـنعم المتفـضل
فليتـك إذ لم تـرع حـق أبـوتي ... فعلـت كمـا الجـار المجـاور يفعـل
تراه معدًا للخـلاف كـأنـه ... بـردٍ علـى أهل الصواب موكـل

قال: فأخذ النبي ﷺ بتلابيب ابنه وقال: "أنت ومالُك لأبيك".

هذا ما رواه البيهقي في الدلائل والطبراني في الأوسط والصغير وفي السند انقطاع.. ولكن نذكر هذه القصيدة لما فيها من المعاني المؤثرة والتصوير الحي لإحساس الوالد نحو ولده، وحزنه عليه عندما يرى منه العقوق، وقد تناقلتها الأجيال.

يقول له غدوتك مولودًا. فقد رعاه وهو وليد ورعاه وهو يافع شاب. يكسب له. ومعنى "تُعَل بما أجني عليك وتنهل" العلل هو الشرب الثاني بعد الشرب الأول، ولهذا يُقال عَلَلُ ونهل ومعنى "أجني" أكسب ومنه جني الثمار.. أي أن خير الوالد متتابع على ولده كالذي يشرب المرة الثانية بعد المرة الأولى. فإذا أصاب ولده أي سقم بات معه ساهرًا يتململ كأنه هو المريض، وعينه تهمل أي تسيل دموعها حزنًا على مرض ولده. ويخاف على ولده مصيبة الموت وهو يعلم أن لكل أجل كتابًا.

ثم ينتقل الوالد إلى الشوط الثاني من قصيدته، وفيها تقدمت السن بالوالد واشتد عود ابنه، وأصبح هو القادرَ على الكسب، والتي تصورها الأب غاية مناه، أن يرى ولده ملء عينيه.. وجعل بين الشوطين في القصيدة معبرًا أو جسرًا يمثله قوله:

فلمـا بلغـت الـسن والغايـة الـتي ... إليهـا مـدى ممـا كنـت فيهـا أؤمـل

وتأمل هنا كلمة "مدى ما كنت فيها أؤمل" وتحس فيها انفساح الأمل وبهجته.. ثم الحسرة المتمثلة في الأبيات الأربعة الأخيرة من قوله:

جعلـت جزائـي غلظـة وفظاظـة ... كأنـك أنـت المـنعم المتفـضل

وانظر تزاحم الحروف وعنفها في قوله: غلظة وفظاظة.. الغين والظاءات الثلاثة المتوالية وبينهما الفاء.. وحزن الأب، وكأنه أصبح الأدنى بعد أن كان الأعلى.. وفي سرعة لا يذكر الوالد تفاصيل الغلظة والفظاظة، بينما في الشوط

الأول من القصيدة ذكر تفاصيل التربية مولودًا ويافعًا يشرب علَلاً بعد نَهَل. وسهر الوالد إلى جواره حزينًا باكيًا إذا مرض ولده كأنه هو المريض، ويخاف على ولده الموت وهو يعلم أنه الحق.. صور متتابعة من الرأفة والحنان تتحرك لها القلوب وتتمثل في الأفكار حتى تكاد ترى الوالد في سهره وبكائه ولوعته وحنانه.

ينتقل من هذا كله ومن الغلظة والفظاظة إلى الجيران الذين كانوا أبر بالأب من ولده وذلك قوله:

فليتـــك إذ لم تـــرع حـــق أبـــوتي فعلـت كمـا الجـار المجـاور يفعـل

إذن الأمر وصل إلى الجيران. وكان منهم للأب إحسان وبر، بينما كان له من ولده الغلظة والفظاظة.

ثم يأتي البيت الأخير وفيه يقف الولد موقف المعارض لأي نصح، كأنه الموكل بالرد على أهل الصواب. وتحس في البيت كأن أهل خيرٍ حاولوا التوسط بين الوالد والولد، ولكن الابن أبى الاستماع إلى النصح، واستمر في غلظته وفظاظته، حتى وصل به الأمر إلى أن يرفعه إلى المصطفى عليه الصلاة والسلام، يشكو والده الذي ينفق من المال على نفسه وعلى عمات وخالات فقيرات.

وإنك مع كل الألم الذي يعتصر نفس الأب تراه يلمّح بأمور ولا يصرّح بها، ويعطي عن ولده ـ ولكن بحنان الوالد الطامع في عودة ولده إلى الصواب ـ يعطي هذه الصورة، التي ظهر فيها الولد سادرًا فيما اختاره لنفسه من غلظة وفظاظة وعقوق وقطع الرحم ورفض استماع النصح من أهل الخير من الجيران الطيبين الذين حاولوا إصلاح ذات البين بين الوالد وولده.

ويأتي الرد النبوي.. كلمة من جوامع الكَلِم "**أنت ومالك لأبيك**".

نعود إلى الإمام الألوسي في تفسيره وهو يروي مجموعة من الأحاديث عن البر بالوالدين. وأن الأم مقدمة على الأب في البر:

روى الشيخان: يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أبوك".

والبر لا يقتصر على الحياة فقط بل يكون بعد الموت أيضًا. فقد روى ابن ماجه "يا رسول الله. هل بقى من بر أبوّي شيء أبرهما به بعد موتهما؟ فقال:

الصلاة عليها، والاستغفار لهما. وإيفاء عهدهما من بعدهما، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما، وإكرام صديقهما".

وروى مسلم أن ابن عمر رضي الله عنهما لقيه رجل بطريق مكة فسلَّم عليه ابن عمر وحمله على حمار كان يركبه، وأعطاه عمامة كانت على رأسه. فقال ابن دينار، فقلت له: أصلحك الله تعالى، إنهم الأعراب، وهم يرضون باليسير. فقال: إن أبا هذا كان وُدًّا لعمر بن الخطاب (أي صديقًا محبوبًا) وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن أبر البر صلة الولد أهل ود أبيه".

وأخرج ابن حبان في صحيحه عن أبي بردة رضي الله عنه قال: قدمت المدينة فأتى عبد الله بن عمر. فقال: "أتدري لم أتيتك"؟ قال: قلت: لا. قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من أحب أن يصل أباه في قبره فليصل إخوان أبيه من بعده" وإنه كان بين أبي عمر وبين أبيك إخاء وود، فأحببت أن أصل ذلك.

هذا وقد عُدّ العقوق من أكبر الكبائر، وكونه منها هو ما اتفقوا عليه، ظاهر كلام الأكثرين، بل صريحه. لا فرق في ذلك أن يكون الأبوان كافرين أو يكونا مسلمين.

الفجوة بين الأجيال:

يقول الله تعالى: ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴾ (الإسراء: ٢٥).

تبدأ الآية الكريمة بكلمة "ربكم" وفيها التربية والرعاية والاقتراب: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (البقرة: ١٨٦).

وهو سبحانه أعلم بنا من أنفسنا.. وعند هذه نقف..

الآية جاءت بعد رعاية الوالدين، وخفض الجناح.. جناح الذل من الرحمة، وبعد القول الكريم، وبعد الدعاء لهما: ﴿ رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ يدعوك الرب الرحيم إلى أن يكون رحيمًا بوالديك، وأنت بهذا تقترب من الله وتقترب منهما. وهما من مفاتيح فضل الله عليك ورضاه عنك.

والحياة في تدفق مستمر لا يتوقف مسارها، ومع التدفق متغيرات دائمة فيها، ومع المتغيرات تتغير المواقف والتصرفات.

خذ مثالاً واحدًا من أدوات الكتابة والطباعة. من تسجيل المعلومات والتطور، من الأقلام التي كنا نغمسها كل مرة في المحبرة، إلى الأقلام ذوات الخزانات، إلى آلات الطباعة العادية، إلى الإلكترونية، إلى الخازنة المبسطة، إلى اختزان ملايين المعلومات، وسهولة استدعائها، وتصنيفها، وما يرتبط بهذا من النظرة إلى الوقف ورغبة الإنسان في الإفادة منه بأكبر قدر ممكن.

وانظر إلى وسائل المواصلات والاتصال والمعرفة.. الشاب الحديث الآن لا يستغني عن الآلة الحاسبة والخازنة. الكمبيوتر أساسي في حياة الدول والشركات والأفراد السائرين مع ركب الحياة الحديثة.

ومع ثورة المعلومات والاتصالات وتفجّر المعرفة والتسابق في الإبداع والابتكار، اتسعت الفجوة رأسيًا وأفقيًا.. رأسيًا بين الأجيال المتعاقبة، وأفقيًا بين الدول المتقدمة والدول المتخلفة أو من يطلق عليهم ـ حياءً ـ الدول النامية.. ولكل من الاصطلاحين ما يبرره.. هي دول متخلفة إذا قيست بالدول المتقدمة.. أو هي الأقل نموًا.. وهي دول نامية لأنها ترغب في النمو وتحقق فيه نصيبًا، ولكنه ليس بقدر الدول التي حدث فيها تراكم المعارف، وأدى هذا التراكم المنظم والعريض إلى حدوث تغيرات كيفية وجوهرية في بنائها.

والنتيجة ـ على مستوى الأسرة الواحدة ـ أن حدثت فجوة بين الأجيال المتتابعة، وتزداد هذه الفجوة اتساعًا إذا نشأ الابن في الريف أو البادية ثم انتقل إلى المدينة، وحملته مواهبه وقدراته إلى العالم المتقدم: مبعوثًا، أو طالب علم، أو باحثًا عن الرزق والفرص الأوسع.. ثم يعود إلى وطنه وبينه وبين الأهل آماد متسعة من فروق التفكير.. أسلوب التفكير يتغير. طرق التعبير. بل سرعة الكلام والرغبة في الوصول إلى النتيجة. النظرة العملية للأشياء والأفراد. زيادة النظرة المادية وتقدمها على القيم والمعاني الروحية والأخلاقية.

وكأن الفجوة لا تتسع فقط بين الأجيال المتعاقبة، بل بين قطاعات الجيل الواحد المتعاصر.

ومع هذا التيار الجارف بكل جاذبيته العلمية والمعرفية، يحدث تيار مضاد يتجه إلى الأصالة، والعودة إلى الذات والجذور، وهذا التيار العائد لا يقتصر على أرض الإسلام، وإنما هو منتشر الآن حتى في قلب بعض الأقطار المتقدمة.. أحيانًا

يأخذ اتجاهًا دينيًا، وهو في هذا ذو شعب متعددة: سلفية، وصوفية، علمية ومناضلة، هادئة وثائرة، ظاهرة وسرية، قومية وإقليمية.. كأنك في سوق مركزية من الأفكار، تبدأ من الطائفة والمذهب وتمتد إلى ما وراء حدود الوطن..

آراء يموج بعضها في بعض، وتتصادم وتتلاقى.. فما مكان الأسرة وسط موج الحياة الجديدة؟ وما مكانة الأبوين وحقوقهما وسط هذا الصراع المتدافع على الحياة ومطالبها وطموحاتها؟ وكيف تنظم العلاقة بين جيل يتصف بالروية والأناة ويعيش ـ في بعض سعادته ـ على ذكريات ماضيه، وجيل عجول يعيش في أكثر اهتماماته بالمستقبل؟ كيف يلتقيان؟

في الغرب هم يعترفون بهذه القضية أو هذه الظاهرة ـ وهي الصحوة بين الأجيال ـ يتصارحون بها. ويبدأ الابن حياته العملية، والخاصة من سن مبكرة. يعتمد على نفسه. ولا يتدخل والداه بعد مرحلة معينة في توجيهه. بل ليس لهما حق التوجيه. وفي كثير من الأحيان ينفرد بحياته الخاصة بعيدًا عن أبويه، وبرضاهما، وتستطيع أن تتصور وحدة الأسرة الصغيرة وهي تتفتت، إلا في بعض البيئات، أو الحرف، أو المسئوليات، التي تقتضي تعاونًا بين أفراد الأسرة لمصلحة الجميع.. فالمصلحة في هذا هي المحرّك الأساسي في التماسك الأسري.

أما الإسلام فله موقف آخر. فالروابط الأسرية عنده ليست من أمور العلم بقدر ما هي من أمور الحكمة. هي ليست مجرد معرفة ولكنها عقل ووفاء.

هذا العقل والوفاء الذي نجد له في الآية مفهومين.. ولنعد قراءة الآية معًا:

﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴾

الإنسان إما صالح وإما أواب: فما الفرق بينهما؟ إن الله سبحانه وعد الولد البار بالمغفرة. والمغفرة ستر من الله تعالى على عباده، والستر يكون على خطأ كان من الإنسان.

معنى هذا أن الابن: إما أن يكون صالحًا يتقي الله في تصرفاته نحو أبويه، وإما أن يكون صلاحه تشرب بشيء من التقصير.. وهو إذا قصّر عاد إلى الله فهذا هو الأواب.

وكأن طريق أحدهما ممتد لا عوج فيه، وطريق الآخر فيه بعض العوج الذي يحاول الابن كلما وقع فيه، أن يعود إلى الاستقامة والصلاح.

وفي هذا رحمة من الله تعالى بعباده، وهو ـ سبحانه ـ العليم الخبير بتطورات الحياة وما فيها من مشاق ومسئوليات. وأنه مهما كان الإنسان صالحاً، فقد يحدث منه التقصير أو الخطأ أو الإساءة غير المقصودة، الناتجة من تباين وجهات النظر.. وهنا تدركه رحمة الله إذا كان من الأوابين.

يقول الإمام بن عاشور رحمه الله (١٥: ٧٥) "التقدير أن تكونوا صالحين أوابين إلى الله فإنه كان للصالحين محسنًا، وللأوابين غفورًا. وهذا يعم المخاطبين وغيرهم.

وهذا الأواب يكون مُطَرِّدًا، ويكون معرضًا للتقصير والتفريط، فيتقضى طلبَ الإقلاع عما يخْرِمُه (أي يشقه ويصدعه) بالرجوع إلى الحالة المُرْضية. وكلُ ذلك أوب وصاحبه آيب. وصيغة المبالغة "أوّاب" لبيان كيفية الوصفِ وقوتِه. فالذي يراقب نفسه ويشتد في ذلك "أوّاب" لشدة محافظته، والمغلوب بالتفريط يؤوب كلما راجع نفسه. فهو "أوّاب" لكثرة رجوعه إلى أمر ربه، وكُلٌّ من الصالحين.

وفي قوله ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ﴾ ما يشمل جميع أحوال النفوس وخاصة حالة التفريط وبوادر المخالفة. وهذا من رحمة الله تعالى بخلقه.

وقد جمعت هذه الآية مع إيجازها تيسيرًا بعد تعسير، مَشُوبًا بتضييق وتحذير ليكون المسلم على نفسه رقيبًا" أ. هـ.

على أن تطور الحياة اقتضى أن يتعاون المجتمع أو الدولة مع الأفراد على تحقيق هذا التعاون والتواد بين الأجيال، وفتح أبواب من العمل أو ملء الفراغ الذي يحس به كبار السن في المجتمع.

وفي كثير من الدول المتقدمة ـ إن لم يكن في جميعها ـ نوادٍ خاصة لكبار السن، فيها أنشطة رياضية وثقافية وخدمات تقدم لهم تتلاءم مع مستويات السن.. بل إن الفرد قبل أن يبلغ سنَ التقاعد، يقومون بإعداده لهذه المرحلة، بأن يتعاونوا معه على رسم خُطَطِها: هل يريد القيام بأعمالٍ مخففة؟ هل يود القيام برحلات خارجية؟ هل يود الاستزادة من معلومات في فرع معين؟ هل يَوَد المشاركة في الإشراف على بعض الخدمات أو المعونة في مؤسسات خيرية؟ هذا إلى ما توفّره الدولة من رعاية طبية هي حقٌ للمواطن وجزءٌ من كرامَتِه لقاءَ خدمتِه الطويلة لها. فالمسئولية هناك شركةٌ بين الفردِ والأسرة والدولة، وتطبيقُ آيات الرعاية متطور مع تطور الحياة، وينتفعُ من آفاقِ العلم والخدماتِ الحديثة.

هم يفعلونه باسم حقِ الإنسانِ.. فلنفعله باسم حق الإنسان، وحق الوالدين، وحق الدين والإيمان.. حتى كبارُ السن لهم اصطلاحٌ خاص: من نماذجه: كبارُ المواطنين. العمرُ الثالث. ولهمُ امتيازات كثيرة في كل مرافق الحياة.

(١٣)

اتساع دوائر البر

يقول الله تعالى: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝٢٦ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾ (الإسراء: ٢٦، ٢٧).

في هذه الآية نرى دوائر البر تأخذ في الاتساع. لقد بدأنا بدائرة الأبوين وهما أوْلَى الناس بالرعاية. والأم فيها كما جاء في الحديث الشريف لها السبق في الرعاية والتكريم.

ويقصد الإسلام من ذلك تربية النفوس على الاعتراف بالجميل، كما يقصد توثيق روابط الأسرة باعتبارها خلية المجتمع التي يتربى فيها الأبناء على التواد والتراحم.. وهو إذا كان ينبعث غريزيًا من الأم والأب ـ فهو عند الابن عقْلاني يرى فيه من الحب والود ما يحبب إلى قلبه الحب والود، إنه كالمرآة الصافية ـ هكذا نرجو ـ أو كالنبات الصالح الذي يكافئ زارعه بالزهر والثمر.

إننا نرى الوفاء حتى في الحيوان الأعجم. حكمة من الله تعالى، نراها في تضحية بعض الحيوانان بنفسها في سبيل أصحابها اعترافًا منها برعايتها.. وكم دافع جواد عن صاحبه في يقظته أو نومه، وكم حفظ لنا تراثنا من قصص عن وفاء الخيل والإبل والكلاب، وبخاصة إذا حَسُن تعليمها. ونَسَب رَبُّنا جل وعلا هذا التعليم إلى ذاته المقدسة في قوله تعالى عن الصيد: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ (المائدة: ٤).

وتأمل هنا هذا الجزء من الآية ﴿ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ لتدرك شرف العلم في القرآن، حتى تعليم الحيوان الأعجم.

وإن جهد الأبوين الأكبر هو إعداد الابن للحياة، والابن يرى هذا الإخلاص من أبويه، والمنتظر منه ـ عقلاً وديناً ـ أن يكون على قدم الوفاء لهما.

أمر آخر يتعلمه الابن من أبويه. ويبدأ منهما، وذلك هو البر بذوي الأرحام. وإن من أخطر ما يتعلمه الابن من والديه أن يكون برُهُما مقتصرًا على الأبناء فقط، دون ذوي القربى. ولا زلت أذكر صديقًا كان كُلّ حبه ورعايته لأبنائه فقد دون فقراءٍ أقربين، كان في مقدوره أن يُمِدَّهم بشيء من العون. وكان يقول دائمًا: أبنائي أوْلى بكل هذا". وتعلم الأبناء منه ذلك. وذهب الوالد إلى جوار ربه، بعد أن كبر الأبناء، وأصبح لكل منهم أسرةٌ صغيرة، وجلسوا يتقاسمون ميراث الأب. مَنْ يأخذ ماذا؟ كانت لهم أكثرُ من دار. وأراض زراعية. ومقتنياتٌ جمعها الأب من رحلاته الكثيرة، وكان خبيرًا في السجاد.. ولك أن تتصور ماذا حدث في هذه الأسرة التي كانت متماسكة بوجود الأب، ثم جلست تقسم الميراث بعد رحيله.. كل ابن من الأبناء يقول: أولادي أوْلى. وتحول الأمر بين الأخوة إلى صراع من أجل الأبناء وأصبحت الأسر الصغيرة متعادية.. ولا زلت أذكر كلمة أحدهم، وقد كان قريبًا مني في فترة من حياته: "ليت أبانا ترك لنا مالاً أقل، وحبًا أكثر، ليته عوّدنا أن نصل الأرحام، وأن نوّسع دائرة البر والمودة.. رحمه الله وغفر له، اجتهد في جمع المال وانصرف عن زراعة الحب".

في قول الله تعالى: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ توسيعٌ لدوائر البر، وتعويدٌ على انتشار الخير. وأفضلُ مَكَانٍ يبدأ فيه هذا الحب هو الأسرة. وأفضلُ المدرسين فيه هم الوالَدان.

والدائرة الأولى بعد الأبوين، هي دائرة ذوي القربى. قرابة الأب والأم معًا. والقرابة حقان: مادي ومعنوي. أما المادي فهو الصلة والتعاون والتهادي. وأما المعنوي فهو المواساة في الحزن، والمشاركة في الفرح، والتزاور في المناسبات.. وإذا كان هذا من حق المسلم على المسلم فهو لذوي القربى أوْجب. وكلمة "حقه" تشمل هذه الجوانب جميعًا، ويجمعها أن تظل القرابة مخضرّة نامية ممتدة الفروع ما دام الجذر الذي يجمعها واحدًا.

صحيح أن الأسر عندما يزداد عدد أفرادها بتتابع أجيالها وانتشارها، يصبح من الصعب أن تجمع أطرافها، ولكن لا أقل من صلة القرابة القريبة. والأقربون أوْلى بالمعروف.

وقد بينت الأدلة الشرعية حقوق ذوي القربى ومراتبها من واجبة مثل بعض النفقة على بعض القرابة، ومن غير واجبة مثل الإحسان.

وقد عرض الإمام الطبري في تفسيره (١٥: ٧١ ـ ٧٢ ط الحلبي) لبيان ذوي القربى وما فيه من أقوال:

الأول:قرابة الميت من أبيه وأمه.
الثاني: قرابة رسول الله ﷺ.

وعقب عليهما في هذه الآية بقوله: "وأولى التأويلين عندي بالصواب: تأويل من تأوّل ذلك أنها بمعنى وصية الله عباده بصلة قرابات أنفسهم وأرحامهم، من قِبَل آبائهم وأمهاتهم. وذلك أن الله عز وجل عقّب ذلك عُقَيب حضه عباده على بر الآباء والأمهات. فالواجب أن يكون ذلك حضًا على صلة أنسابهم، دون أنساب غيرهم التي لم يجر لها ذكر.

وإذا كان ذلك كذلك، فتأويل الكلام: وأعط يا محمد قرابتك حقه من صلتك إياه، وبِرّك به، والعطف عليه، وخرج ذلك مخرج الخطاب لنبي الله ﷺ، والمراد بحكمه جميعَ من لزمتْه فرائض الله، يدل على ذلك ابتداؤه الوصية بقوله جل ثناؤه ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا ﴾ فوجّه الخطاب بقوله: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ ﴾ إلى نبي الله ﷺ، ثم قال ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ فرجع بالخطاب إلى الجميع، ثم صرف الخطاب بقوله: ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ ﴾ إلى إفراده به. والمعنيُّ بكل ذلك جميع من لزمته فرائض الله عز وجل، أفرد بالخطاب رسول الله ﷺ أو عمَّ به هو وجميع أمته".

"والمسكين" هو الذلة من أهل الحاجة. وحق المسكين هو الصدقة. قال تعالى: ﴿ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ (الفجر: ١٨).

وقوله تعالى: ﴿ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ (البلد: ١٤ ـ ١٦).

"وابن السبيل" هو المسافر المنقطع به.

المعنى: يقول تعالى مبينًا هذه التوجيهات الربانية مخاطبًا عبده: صل قرابتك فأعطه حقه من صلتك إياه، والمسكين ذا الحاجة، والمجتاز بك المُنْقَطع به،

فأعنه، وقوّه على قطع سفره. وقيل: إنما عُنِي بالأمر بإتيان ابن السبيل حقه: أن يضاف ثلاثة أيام" .. ويعقّب الطبري على هذا بقوله (١٥:٧٢) "والقول الأول عندي أولى بالصواب، لأن الله تعالى لم يُخَصِّص من حقوقه شيئًا دون شيء في كتابه، ولا على لسان رسوله، فذلك عام في كل حق له أن يُعطاه، من ضيافة، أو حمولة، أو معونة على سفره".

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ يقول: "ولا تفرّق يا محمد مما أعطاك الله من مال في معصيته تفريقًا. وأصل التبذير: التفريق في السرف، وإنفاق المال في غير الحق. وقد سئل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن هذه الآية: ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ قال: إنفاق المال في غير حقه (نفس المرجع ١٥: ٧٣). وقال مجاهد رضي الله عنه: لو أنفق إنسان ماله كله في الحق، ما كان تبذيرًا، ولو أنفق مُدًّا في باطل كان تبذيرًا" (نفس المرجع ١٥: ٧٤) والمُدّ مكيال (وهو رطل وثلث عند أهل الحجاز ورطلان عند أهل العراق: مختار الصحاح).

ومن معانيها: لا تعطِ في معاصي الله، وفي غير الحق، في الفساد.

فالآية جمعت ثلاث وصايا:

الأولى: إيتاء ذي القربى لتقوية روابط الأسرة، والعشيرة والقبيلة، وفي هذا صلاحها وقدرتها على حفظ نظامها والدفاع عن حوزتها.

الثانية: إيتاء المسكين لانتظام المجتمع فلا يكون في أفراده من هو في بؤس وشقاء.

الثالثة: إيتاء ابن السبيل لإكمال نظام المجتمع، لأن المار به من غير أهله قد يكون في حاجة إلى الإيواء أو الحماية أو الراحة أو العون ليتابع مسيرته. وهو في هذا يحفظ جميل من أكرموه، وتتبادل المجتمعات أو التجمعات العون والنصرة.